

## مات عثمان بن مظعون

فبكته حبيبته، وبكته نساء، وبكاه الرجال، وسال دمع النبي ﷺ على خدي عثمان وهو يقبله بحزن يملأ صدره.. مات ذلك العابد فكان مشهد جنازته والأحباب من حولها مشهداً يذيب الصخر والقلوب، ويذيب النواح.

ها هو ﷺ وقد (دخل على عثمان بن مظعون يوم مات فأحنى عليه<sup>(١)</sup> كأنه يوصيه، ثم رفع رأسه، فرأوا في عينيه أثر البكاء، ثم أحنى عليه ثانية، ثم رفع رأسه فرأوه يبكي، ثم أحنى عليه الثالثة، ثم رفع رأسه وله شهيق، فعفرأوا أنه قد مات، فبكى القوم. فقال النبي ﷺ: مه، إنما هذا من الشيطان، فاستغفروا الله<sup>(٢)</sup>).

ثم قال: اذهب عنها أبا السائب، فلقد خرجت ولم تلتبس منها بشيء<sup>(٣)</sup>

كانت عائشة هناك.. حزينة مثل بقية الحاضرين.. شاهدت دموعه ﷺ وهي تسيل على خدي عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فقالت: (رأيت رسول الله ﷺ يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت «وهو يبكي، وعيناه تهرقان» فرأيت دموعه تسيل على خديه<sup>(٤)</sup>) أي على خدي عثمان.. حزناً على ذلك صاحب الزاهد.. القائم الصائم. الذي سافر عن الدنيا نقياً دون أن تلوثه.

شهد النبي ﷺ لعثمان بالنقاء والصفاء من الدنيا، فهل يعني ذلك أن نقول عن كل من كان مثله: إنك من أهل الجنة.

(١) أي انحنى عليه وأكب.

(٢) طالبهم عليه السلام بالاستغفار لا من أجل البكاء، لأنه بكى قبلهم وهو لم يحرم البكاء على الميت لكنه نهى عن رفع الصوت نواحاً على الميت ويطلق عليه بكاء أيضاً، لكنه بكاء محرم كما مر في البكاء على حمزة رضي الله عنه.

(٣) سنده قوي وقد ضعفه الشيخ شعيب حفظه الله في السير (١٥٦/١) بل جعله واهياً ومته منكرأ، ولعله اعتمد على قول الإمام الهيثمي: ولم أعرفهما، يقصد شيخ الطبراني راوي الحديث ووالد شيخه، لكن نظرة سريعة على التقريب والتهديب تغني عن ذلك، فشيخه عبد العزيز بن عمر بن مقلص ثقة فاضل، ملازم لحلقة أبيه الثقة، ووالده كان يدارس العلماء ومن تلاميذه: أبو حاتم وأبو زرعة والعقيلي. قال أبو حاتم: صدوق ٥-٢٩١.

(٤) صححه الترمذي ٢-١٣٠ والبیهقي وله شاهد بإسناد حسن في «مجمع الزوائد» ٣-٢٠.

النبي ﷺ يبكي.. يشهد لعثمان بالزهد، وزوجته تشهد له بالصيام والقيام. ألا يكفي ذلك للجزم بدخوله الجنة؟.. لا

## لا يحكم لأحد - حتى عثمان - بالجنة

كيف؟.. أمر مفرع، ومخيف..!! إذا لم يحكم لعثمان فلمن يحكم؟.. العواطف مرة أخرى تثور وتستتكر وتحج؟ لكن الإسلام والتوحيد لا ينطلقان من العواطف والأهواء، وإلا لأصبح لكل فرد دين، لأن كل فرد عالم من العواطف والأهواء.. الإسلام يعتني بالعاطفة.. يهدبها.. ينقيها من الشوائب، ثم يطلقها أطيافاً جميلةً في الأجواء، وحبنا لشخص لا يعني أن الحق معه أينما اتجه.

الكل يشهد لعثمان بن مظعون بالصلاح في دنياه، لكن النبي ﷺ غضب عندما حكم له بالجنة، لأن في ذلك تجاوزاً لمسؤوليات الإنسان.. فيه تزييف وادعاء

عندما قدم عثمان بن مظعون إلى المدينة مع المهاجرين.. أقبل عليهم الأنصار بالأيدي والقلوب والبيوت.. تنازع الأنصار.. كلُّ يريد أن يفوز بأخ له من المهاجرين يسكن معه في بيته، ولم ينته ذلك النزاع الحبيب إلا بالقرعة، وعندما وصل دور القرعة إلى عثمان بن مظعون.. جعلته القرعة من نصيب بيت زوج أم العلاء، وهو رجل من الأنصار رضي الله عنهم، ولما أصابه المرض.. مرّضته أم العلاء، وشهدت له عند رسول الله ﷺ بالصلاح، لكنها شهدت له بشيء أغضب النبي ﷺ.

يا أم العلاء ماذا قلت عن عثمان رضي الله عنه؟..

تقول رضي الله عنها: (إن عثمان طار لهم في السكنى حين قرعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك قد أكرمك الله.

فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ قلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟

قال: أما هو فقد جاءه والله اليقين، والله إنني لأرجو له الخير، وما أدري -والله- وأنا رسول الله ما يفعل بي.

قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً. قالت: فأحزنتني ذلك، فتمت، فأريت لعثمان بن مظعون عيناً تجري، فجنّت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: ذلك عمله<sup>(١)</sup> الصالح.. تقبّله الله منه وجزاه الجنّة بما عمل، فأوحى بهذه البشرى إلى نبيه ﷺ، لكن قبل ذلك لا أحد يدري عن مصيره، وهل هناك فوق قول النبي ﷺ: وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي.

إذاً فلا شأن لأحد بما بعد الموت، ولا بالنوايا، ولا يكفي ظاهر العمل للحكم على الإنسان بأنه من أهل الجنّة أو النار، حتى في مدح الإنسان لأخيه وهو حي.. يأمر ﷺ بعدم الاندفاع، ففي أحد الأيام (أتى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال: ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك.. مراراً،

ثم قال ﷺ: من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه)<sup>(٢)</sup>

هاهو عثمان بن مظعون رضي الله عنه.. ها هم يحملونه نحو البقيع، ومعهم رسول الله ﷺ بعد أن صلّوا عليه، وقد بين ﷺ لأصحابه الطريقة الأفضل للمشّي مع الجنازة، فقال: (الراكب يسير خلف الجنازة، والماشي يمشي خلفها وأمامها، وعن يمينها، وعن يسارها، قريباً منها)<sup>(٣)</sup>

وكان ﷺ يقول: (إذا رأى أحدكم الجنازة، فإن لم يكن ماشياً معهم فليقم «حين يراها»<sup>(٤)</sup>)، وقال جابر رضي الله عنه: (قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)<sup>(٥)</sup>، (فقلنا: يا رسول الله، إنها يهودية، فقال: إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا)<sup>(٦)</sup> (فقليل: إنه يهودي، فقال: أليست نفساً)<sup>(٧)</sup>. ثم إن الأمر بالقيام لم يدم، فقد أمر الله نبيّه بالتعود.

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٨٧).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٦٢).

(٣) سنده صحيح رواه أهل السنن عن زياد بن جبير حدثني أبي عن المغيرة جبير ووالده ثقتان.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (٩٥٨) والزيادة له.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).

(٦) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (١٣١٢).

قال علي رضي الله عنه: (رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا وقعد، فقمنا)<sup>(١)</sup>

وفي جنازة عثمان رضي الله عنه لم يكن رسول الله ﷺ قائماً ولا جالساً.. كان ﷺ يشارك في دفن صاحبه بيديه، ويفعل شيئاً يدل على مكانة عثمان في نفسه ﷺ، فبعد أن قال: (بسم الله وعلى سنة رسول الله)<sup>(٢)</sup> يقول أحد الصحابة: (لما مات عثمان بن مظعون أخرج بجنازته فدفن، أمر النبي ﷺ رجلاً أن يأتيه بحجر، فلم يستطع حمله، فقام إليه رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه)<sup>(٣)</sup>، كآني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ حين حسر عنها، ثم حملها، فوضعها عند رأسه وقال: أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي)<sup>(٤)</sup>.

كل هذا الحب لعثمان بن مظعون.. كل ذلك البكاء وتلك الدموع، ومع ذلك فلم يزد ﷺ على وضع حجر كبير ليعرف به قبر أخيه عثمان عندما يزور مقبرة البقيع، فقط ليعرف قبره.

أما من تغريه عواطفه ونفسه بتزيين قبر حبيبه أو حبيبته بالرخام أو الجص أو البناء أو القباب، فقد قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)<sup>(٥)</sup>، ولأن (رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها)<sup>(٦)</sup> فقد نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)<sup>(٧)</sup> لأن فتح باب البدعة لا يعني أبداً مرونة في العقيدة.. هو تمييع للعقيدة.. تمزيق لها.. يعني التواء نحو بدايات الشرك، والإسلام هروب.. كله هروب من الشرك وانحرافات.

نهى ﷺ (أن يكتب على القبر شيء)<sup>(٨)</sup>، والكتابة قد تكون الكتابة في نظر البعض شيئاً يسيراً، لكنه ستفضي لا محالة إلى كتابة المدائح، والأشعار، والآيات، والمبالغات، وأشياء تجعل من القبور تحفاً أو متاحف أو معارض، أو مزارات لذاتها.

(١) حديث صحيح رواه مسلم - (نسخ القيام للجنازة).

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٣٢١٣) حدثنا محمد بن كثير ومسلم بن إبراهيم، حدثنا همام، عن قتادة عن أبي الصديق عن ابن عمر. أبو الصديق تابعي ثقة اسمه: بكر بن عمرو التقريب ١٢٦ وهمام بن يحيى ثقة التقريب ٥٧٤ وقد توبع قتادة عند الترمذي وابن ماجه.

(٣) في الحديث بعد هذه الكلمة: قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك عن رسول الله ﷺ.

(٤) سنده حسن رواه أبو داود من طريق: كثير بن زيد المدني، عن المطلب عن أحد الصحابة (٣٢٠٦) المطلب صحابي وكثير ثقة وجرحه لا ينهض أمام توثيقه، التهذيب ٨-٤١٤.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (الأمر بتسوية القبور).

(٦) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٨).

(٧) حديث صحيح رواه مسلم (٩٧٠).

(٨) صححه الإمام الألباني في أحكام الجنائز (٢٠٤) لكنه لم يجب عن عنفة أبي الزبير.

ولما ذكرت أم سلمة رضي الله عنها للنبي ﷺ ما رأته في الحبشة من نقوش جميلة وصور عجيبة، داخل كنيسة هناك يسمونها «مارية»؟ قال ﷺ: (أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، ثم صوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)<sup>(٢)</sup> لعنهم الله رغم أن بعضهم كان يريد تكريم نبيّه بإقامة ذلك المسجد، أو المعبد أو الكنيسة..

لعنهم الله لأنهم استمدّوا العقيدة من العواطف.. من التخاريف.. من غلوهم وتطرّفهم في أنبيائهم، والعقيدة وحي متى ما خالطها غير الوحي فسدت، وحب النبي وتكريمه لا يكون بالغلو والتطرّف، بل بتنفيذ ما جاء به ذلك النبي.. بحفظه ونقله بأمانة دون زيادة أو نقصان، لأن الزيادة دين بشري، والنقصان تشويه للوحي، والزيادة والنقصان أورام خبيثة محتقنة بالكفر والشرك والبدع، وما جاء ﷺ إلا للاستئصال تلك الأورام واجتثاث الشرك وجذوره، والإسلام جاء ليبتدع الإنسان ويبدع في شؤون الدنيا زراعة وصناعة وتجارة.. مستمداً ذلك الإبداع وموجهاً بالوحي النقي، فإذا ابتدع الإنسان في الدين والدنيا تمزق بين اتجاهين، فإما أن يكون متطرفاً دينياً، أو يكون رقماً في آله لا ضمير لها ولا قيم، واليهود ممزقون، فما هي حالهم الآن بعد موت سعد بن معاذ.

### اليهود بعد موت سعد بن معاذ

أشد رعباً وخوفاً من قبل، إلا من آمن منهم وامتلاً قلبه برحابة الإيمان وراحته، فالسيف الذي تركه سعد لا يزال محمولاً بكف فارس آخر، وهو على أتم الاستعداد لأي خيانة جديدة مهما كان حجمها.

لكن ماذا عن رؤوس الفتنة، ومحرضي الأحزاب (سلام بن أبي الحقيق) و(حيي بن أخطب) الذي أخذ على نفسه عهداً بمعاداة النبي ﷺ ومحاربته وعناده ما تردد الهواء في صدره.. رغم معرفته وتأكده من نبوته؟..

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٣٠).

يبدو أن حيي بن أخطب قد قتل مع من قتل من بني قريظة، أما سلام بن أبي الحقيق فقد ورط الأحزاب، ثم خانهم جميعاً وهرب، بل خان يهود قريظة ثم انسل كالحية إلى (حصن له بأرض الحجاز)<sup>(١)</sup> في خيبر بالتحديد، فهل سيفلت من العقاب الذي حل ببني قريظة..؟

إنه يستحق أكثر من عقاب، فهو الذي خطط وتآمر وحرص ونقض العهد، ولما اشتبك أعداؤه وحلفاؤه ترك الجميع وهرب، وهو في حصنه الآن.. بين نسائه وأصدقائه.. يشرب ويتنعم ويحلم بدماء محمد ﷺ وأصحابه.. يحلم بانتهيار دولتهم في أقرب فرصة.

لكن النبي ﷺ لن يترك هذا المجرم وأحلامه.. إنه فيروس خطير يسري في العقول، وينتشر في الهواء، ويلوث الحياة، لذلك فقد أصدر النبي ﷺ أمراً بالقضاء على تلك الآفة.. أصدر أمراً ب:

### قتل سلام بن أبي الحقيق

وكان أكثر المتحمسين لذلك فرسان الخزرج، الذين أرادوا منافسة إخوانهم الأوس في نصره الله ورسوله، وفي مقدمتهم الشاب عبد الله بن عتيك.

يقول البراء بن عازب: (بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجلاً من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، «عبد الله بن عتبة في ناس معهم»، وكان أبو رافع يؤدي رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحتهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإنني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل. فأقبل حتى دنا من الباب، «فانطلق رجل منهم فدخل حصنهم».

قال: فدخلت في مربط دواب لهم، وأغلقوا باب الحصن، ثم إنهم فقدوا حماراً لهم فخرجوا «بقبس» يطلبونه، فخرجت فيمن خرج، أريهم أنني أطلبه معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا «فخشيت أن أعرف، فغطيت رأسي ورجلي كأني أقضي حاجة، ثم نادى صاحب الباب: من أراد أن يدخل فليدخل، قبل أن أغلقه».

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩).

ثم تقنع بثوب كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فأني أريد أن أغلق الباب. فدخلت، فكمنت «في مريب حمار عند باب الحصن» فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق<sup>(١)</sup> على وتد، «ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفاتيح الحصن في كوة، فأخذته ففتحت به باب الحصن» فممت إلى الأقاليد<sup>(٢)</sup> فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمر عنده، وكان في علالي<sup>(٣)</sup> له، «فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهب ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم» فلما ذهب عنه أهل سمره «هدأت الأصوات، ولا أسمع حركة، خرجت» صعدت إليه «في سلم» فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي<sup>(٤)</sup> لم يخلصوا إلي حتى أقتله. فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم «قد طفئ سراج» وسط عياله لا أدري أين هو من البيت، فقلت: يا أبا رافع. فقال: من هذا؟

فأهويت نحو الصوت<sup>(٥)</sup> فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، «كأني أغيثه».

فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ «مالك يا أبا رافع.. وغيرت صوتي. فقال: ألا أعجبك لأملك الويل».

«قلت: ما شأنك». فقال: لأملك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف.

«فعمدت له» فأضربه ضربة أثخنه ولم أقتله، «فصاح، وقام أهله، ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره» ثم وضعت ضبيب<sup>(٦)</sup> السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره «ثم تحاملت عليه حتى قرع العظم» «ثم أنكفئ عليه حتى سمعت صوت العظم» فعرفت أنني قتلتها، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتى انتهيت إلى

(١) أي المفاتيح وهي ما يغلق بها الباب.

(٢) أي المفاتيح أيضاً.

(٣) غرفة.

(٤) أي إن علموا بي وأنذر بعضهم بعضاً.

(٥) توجهت نحو مصدر الصوت.

(٦) ربما يعني حرف حد السيف.

درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أنني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي «فانخلعت رجلي» فعصبتها بعمامة، «ثم أتيت أصحابي أحجل<sup>(١)</sup>، فقلت لهم: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية»

ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك، قام الناعي على السور. فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز.

«فممت أمشي ما بي قلبة<sup>(٢)</sup>، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ» فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء<sup>(٣)</sup> فقد قتل الله أبا رافع.

فانتهيت إلى النبي ﷺ، فحدثته، «فبشرته». فقال لي: ابسط رجلك. فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط<sup>(٤)</sup>.

أكرم الله عبد الله بن عتيك بتلك المسحة، بعد أن مسح عن وجه الأرض ذلك العفن المسمى «سلام بن أبي الحقيق».. كان عبد الله بن عتيك قلباً من حديد، وأعصاباً من فولاذ.. نشر الرعب في ذلك الحصن، وفي قلب كل يهودي.

لقد اهتز كل شيء حول المدينة وتزلزل، أما المدينة فهي الحضر الدافئ، والأمن الحاني الذي يقصده من استبد بهم الخوف، ويأوي إليها من تطارده وحوش الهموم والقلق من سوء المصير.

أحد الهائمين على وجوههم.. الموغلين في الشرك والدماء.. أحد الذين قدسوا صنم اللات وعبدوها وسدنوها، وحاربوا الإسلام ونبيه ﷺ والمسلمين من أجلها.. داهية تتضاءل أمامه الصعاب، وتتفرج لحيلته المضايق.. وقع في ورطة أدهى منه، فلم يجد سوى الإسلام ومحمد ﷺ مخرجاً منها.. هذا الداهية الثقفي المنحدر من جبال الطائف التي تضيق باللات.. يدعى (المغيرة بن شعبة) جمع الشجاعة والدهاء، عمه زعيم الطائف واسمه (عروة بن مسعود الثقفي) وقد كلفه دهاء المغيرة وحيلته الشيء الكثير، وأوقعه في ورطة كان المخرج منها:

(١) يرفع رجلاً ويقف على الأخرى من العرج.

(٢) أي أنه لم يشعر بالألم لشدة ما هو فيه من الأمر.

(٣) أي أسرعوا.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩) والزوائد له في (٤٠٤٠) و(٣٠٢٢).

## إسلام المغيرة بن شعبه

فقد سافر المغيرة وهو مشرك مع قوم مشركين، ويبدو أنه قد صدر من هذه المجموعة ما أهان المغيرة وأغضبه، فغلا الانتقام والغضب والدهاء في رأسه، فأخذ أموالهم وتركهم نهباً لذئاب الصحراء وطيورها الجارحة، وترك ديتهم لعمه عروة، وعندما أحس بضيق الدنيا في وجهه.. أبصر طريق الفرج مفتوحاً على بساتين محمد ﷺ وأنهاره العذبة.

يقول أحد الصحابة: (كان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)<sup>(١)</sup> فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، والغدر والخيانة ليست من صفات المؤمنين.

لم يقره النبي ﷺ على قتله وسلبه لأولئك القوم رغم أنهم كانوا مشركين، والفرق بين ما فعله المغيرة وما فعله عبد الله بن عتيك بسلام بن أبي الحقيق هو أن سلاماً كان رأس فتنة يحرض على حرب المدينة ويخطط للغدر بأهلها، ثم خان المسلمين والمشركين معاً، وهرب إلى حصنه في أرض خبير وكأنه لم يفعل شيئاً.

إن خطر أمثال ابن أبي الحقيق أشد من خطر جيش بأكمله، وخيائته لا يمكن أن تتوقف مادام يعتبرها هو وأتباعه ديناً يتعبد الله بفعله، وإذا كان الطائف قد ضاق بالمغيرة، فمكة تضيق الآن بداهية آخر، وبشجاع آخر وهو الآن يهرب منها. إنه:

## عمرو بن العاص يهرب من مكة

كَلَّ دهاؤه وتلاشى كالسراب.. تأمل المكان الذي أوصله إليه شركه ودهاؤه فوجده بعيداً جداً عن المنطق، وأدرك أن بساطة هذا النبي وروعة دينه أعظم من أي دهاء، وأقوى من أي كيد.

توجه عمرو بن العاص وهو الرأس في قومه إلى حيث يلتجئ الضعفاء والمساكين.. توجه محمولاً بالعناد والحيرة إلى الحبشة حيث يلتجئ جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم بعيداً عن أيدي قريش.. ركب عمرو بن العاص سفينة قذفته في

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢١).

أرض الحبشة، وأقام هناك إقامة متواضعة مقارنة بإقامة المؤمنين الذين يحظون بحب وحماية النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه، وفي أحد تلك الليالي الحبشية لمح عمرو بن العاص جعفرًا رضي الله عنه فالحق به، وحدثه حديثًا يقصه بنفسه علينا فيقول: (لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق.. جمعت رجالا من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله اني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا كبيرا منكرا، وأني قد رأيت رأيا فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟

قال: رأيت ان نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف، فلن يأتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هذا الرأي.

فقلت لهم: فاجمعوا له ما نهدي له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدما كثيرا، فخرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، فدخل عليه ثم خرج من عنده.

فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه، فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلت ذلك رأيت قريش اني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت اصنع. فقال: مرحبا بصديقي أهديت لي من بلادك شيئا؟ قلت: نعم، أيها الملك قد أهديت لك أدما كثيرا.

ثم قدمته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك إنني قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. فغضب ثم مد يده فضرب بها انفه ضربة ظننت انه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقا منه، ثم قلت: أيها الملك والله لو ظننت انك تكره هذا ما سألتكه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله..؟ قلت: أيها الملك أكذاك هو؟

فقال: ويحك يا عمرو أظنني واتبعه، فإنه والله لعلني الحق، وليظهرن علي من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم.

فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي ثم خرجت<sup>(١)</sup>.

كتم عمرو إسلامه، وأشار للنجاشي بعدم إفشائه، لكن هذا الدين ملاءة حماساً، وعندما رأى جعفر لم يصبر عن إعلان أخوته وإسلامه.

يقول عمرو: (فلما كان ذا عشية لقيته في السكة، فنظرت خلفه، فلم أر خلفه أحداً، فأخذت بيده، فقلت: تعلم أنني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فغمزني، وقال: أنت على هذا.

وتفرقنا، فما هو إلا أن أتيت أصحابي، كأنما شهدوني وإياه، فما سألوني عن شيء حتى أخذوني فصرعوني، فجعلوا على وجهي قطيفة، وجعلوا يغمونني بها، وجعلت أخرج رأسي أحياناً حتى انفلت عرياناً، ما علي قشرة، ولم يدعوا لي شيئاً إلا ذهبوا به، فأخذت قناع امرأة عن رأسها فوضعت على فرجي، فقالت لي: كذا. وقلت: كذا - كأنها تعجبت مني-، وأتيت جعفرأ فدخلت عليه بيته، فلما رآني قال: ما شأنك؟

قلت: ما هو إلا أن أتيت أصحابي، فكأنما شهدوني وإياك، فما سألوني عن شيء حتى طرحوا على وجهي قطيفة، غموني بها، أو غمزوني بها، وذهبوا بكل شيء من الدنيا حولي، وما ترى علي إلا قناع حبشية، أخذته من رأسها. فقال جعفر: انطلق.

فلما انتهينا إلى باب النجاشي، نادى: ائذنوا لحزب الله. وجاء أذنه، فقال: إنه مع أهله. فقال: استأذن لي عليه. فاستأذن له عليه، فأذن له، فلما دخل قال: إن عمراً قد ترك دينه واتبع ديني. قال: كلا!!

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-١٩٨ والحارث، زوائد ٢-٩٣٢ حديثي يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس عن أبي حبيب بن أبي أوس حديثي عمرو. يزيد تابعي ثقة، وراشد قال عنه ابن معين: ثقة يروى عنه المصريون، الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، أما حبيب فقال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدا فيكون هذا صحابياً وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

قال: بلى. فدعا آذنه فقال: اذهب إلى عمرو، فقال: إن هذا يزعم أنك تركت دينك واتبعت دينه. فقلت: نعم.

فجاء إلى أصحابي حتى قمنا على باب البيت، وكتبت كل شيء حتى كتبت المنديل، فلم أَدع شيئاً ذهب إلا أخذته، ولو أشاء أن آخذ من أموالهم لفعلت. ثم كنت بعد من الذين أقبلوا في السفينة مسلمين<sup>(١)</sup>.

ها هي سفينة أخرى محملة بالإيمان.. قادمة من اليمن تحمل رجالاً يقصدون المدينة، لكن ربانها لم يكن بالمهارة المطلوبة، وبدلاً من أن تسلمهم المياه إلى ساحل على قارة آسيا.. قذفتهم على إحدى شواطئ أفريقيا، لكن لا بأس، فإن في الحبشة نسيماً عطراً يدعى النجاشي رضي الله عنه، وفيها أيضاً أحبة لرسول الله ﷺ لعل أشهرهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب وزوجته الشابة المجاهدة الصابرة (أسماء بنت عميس) رضي الله عنها.. ها قد نزل أهل اليمن من السفينة.. تعالوا لنقترب منها ومنهم.. نتعرف على هذه الوجوه التي أرهقتها البحر والسفر، وأبحر بها الحب والإيمان.. كان من بين هؤلاء المسافرين الذين زادوا على الخمسين ثلاثة أخوة من اليمن الطيب:

### أبورهم وأبو بردة وأبو موسى في الحبشة

يقول أصغرهم سنأ وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي، أنا أصغرهم أحدهما: أبو بردة، والآخر أبو رهم إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه)<sup>(٢)</sup> على أرض الحبشة الرحبة.. في ضيافة ملكهم الكريم العادل (أصحمة) النجاشي، وعلى تلك الأرض الطيبة.

(١) سنده حسن رواه البزار. زوائد - ٢ - ٢٩٧: حدثنا محمد بن المثني، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون، عن عمير بن إسحاق، حدثني عمرو بن العاص. وقد مر معنا الحديث في المجلد الأول. عمير حسن الحديث.. قال ابن معين ثقة، وقال مرة: ليس بشيء أي قليل الحديث، وقال: النسائي: لا بأس به. وعبد الله بن عون ثقة ثبت فاضل، ومعاذ ثقة متقن من رجال الشيخين وشيخ البزار ثقة ثبت يعرف (ب)الزمن).  
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٣٦).

لم تصفُ الحياة للمؤمنين، لكنها كانت بعيدة عن مخالِب قريش على كل حال، كان من بين المهاجرين فتاة مؤمنة.. تمرد إيمانها على زعامة أبيها وسلطته، فأخذت بيد زوجها إلى أول مركب وأبحرت إلى الحبشة.. هذه الفتاة هي بنت زعيم قريش ومكة.. بنت أبي سفيان، واسمها «رملة» وتكنى بـ (أم حبيبة).

## أم حبيبة تبكي في الحبشة

حزينة على أرض الحبشة.. بعيدة عن مكة والمدينة.. لم يكن البعد وحده الذي يعصف بقلب أم حبيبة، فزوجها الآن طريح الفراش مريض، وقد اشتد به المرض، وعندما أحس بأنامل الموت تدنو منه وتدب في أوصاله.. همس بمن حوله برسالة إلى النبي ﷺ.

## رسالة قبل الموت

بعث بها عبيد الله بن جحش الذي هاجر مؤمناً<sup>(١)</sup> إلى أرض الحبشة.. إلى النبي ﷺ يوصيه بأحب الناس إلى قلبه.. يوصيه بالحبيبة أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان».

تقول عائشة رضي الله عنها: (هاجر عبيد الله بن جحش بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة مرض، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup> فوصلت الوصية، فبعث ﷺ الرد مع أحد المؤمنين القادمين على هذا القارب الذي يتهادى فوق مياه البحر نحو سواحل الحبشة.. إنه يرسو الآن حاملاً لأم حبيبة البشرية والعزاء، فقد انقضت أيام حدادها وأحزانها، وجاء صاحب رسول الله ﷺ يخطبها.

(١) روي أن عبيد الله مات نصرانياً على أرض الحبشة مرتداً عن الإسلام، لكنني لم أجد حديثاً صحيحاً يثبت ذلك، إنما وجدت العكس وهو الحديث التالي والله أعلم.

(٢) سنده صحيح رواه ابن حبان (الزوائد - ٣١٢) أخبرنا ابن خزيمة، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، حدثنا سعيد بن كثير بن عفير، حدثنا الليث عن ابن مسافر عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة. عروة وابن شهاب الزهري مرا معنا كثيراً. أما ابن مسافر فاسمه: عبد الرحمن بن خالد بن مسافر - أمير مصر - قال ابن يونس وتلميذه الذهلي: ثبت. وقال العجلي والدارقطني: ثقة التهذيب ١٦٢/٦ والبقية أئمة ثقات.

استبشرت أم حبيبة بهذا الخبر، وفرح النجاشي، فقد وجدها فرصة ولا أنسب  
ليقدم هدية للنبي ﷺ:

## النجاشي يهدي للنبي ﷺ مهراً حبيبة

مهراً كله.. هدية من النجاشي للنبي ﷺ، ثم أرسلها مع صحابي كريم اسمه  
(شرحبيل بن حسنة)

عن ذلك تقول أم حبيبة رضي الله عنها: (أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش  
«وكان أتى النجاشي» فمات بأرض الحبشة «وأن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة وإنها  
بأرض الحبشة» فزوجها النجاشي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف «ثم جهزها  
من عنده» وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة «وجهازها كله من عند  
النجاشي»<sup>(١)</sup>

عبرت أم حبيبة الحزن والغربة والبحر تحمل مهرها والفرح، فقد جعلها الله من  
أمهات المؤمنين.. من سيدات نساء العالم والجنة.. من حبيبات محمد ﷺ، وصار لها  
بدل الهجرة هجرتان، وأزاح ذلك العرس ما بها من شقاء وغربة وأحزان.

وصلت رملة ففرح بها النبي ﷺ.. تشاركه حياته ومعاناته وأفراحه، أما والدها أبو  
سفيان فيبدو أن الخبر أفرحه، لذلك لم يصدر منه ما ينبئ عن استنكاره لذلك الزواج،  
فهو يعتبر النبي ﷺ زعيماً لا مثيل له، وإنه لشرف أن يكون صهراً لهذا الزعيم.

ولئن كان زواج النبي ﷺ من رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها قد أبهج والدها،  
إلا أن النبي ﷺ قد عزم على ما يكدر صفوه، ويضيف إلى هزيمته عند الخندق هزيمة  
أخرى، ف:

(١) سنده صحيح رواه أبو داود (٢١٠٧) واللفظ له وأحمد ٦-٤٢٧ والزوائد له: حدثنا ابن المبارك، حدثنا  
معمر، عن الزهري عن عروة عن أم حبيبة. عروة والزهري ثقتان مرا معنا كثيراً، ومعمر ثقة ثبت فاضل  
- التقريب (٥٤١) ولخص الحافظ القول في ابن المبارك: ثقة، ثبت، فقيه، عالم، جواد، مجاهد، جمعت  
فيه خصال الخير - التقريب (٢٢٠).

## النبي ﷺ يريد أداء العمرة

وهذا من حقه، ومن حق أي عربي، بل من حق أي إنسان أن يزور بيت الله ويطوف به، لكن قريشاً تفكر بطريقة مختلفة، فهي لا تنظر إليه حقاً من حقوق خصمها، الذي يجب عليها أن تؤمن له الحماية ما دام على أرضها، وهذه من صفات قريش الكريمة العتيدة المحسوبة لها، لكنها تنظر إلى هذه العمرة على أنها هزيمة يلحقها محمد ﷺ وأصحابه بها كسابقاتها.

كيف يطوف هو وأصحابه وقد طردوهم بالأمس من مكة؟ كيف يأتون مكة دون إذن قريش.. أين مكانة قريش وأصنامها..؟

سؤال ضاقت به مكة، أما رسول الله ﷺ فلم يبال برأي قريش.. لقد أراه الله في منامه رؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي، وقد قص النبي ﷺ على أصحابه تلك الرؤيا، وبشرهم بأنهم سيطوفون ببيت الله بعد طول غياب عنه.. بعد خمس سنوات من الحرمان.

يقول عمر بن الخطاب: إن النبي ﷺ (كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به)<sup>(١)</sup> فتهللت وجوه الصحابة، وأفرحهم الخبر، وأعدوا للسفر عدته، وأطلق اسم (الحديبية) على تلك العمرة فيما بعد. ف:

## متى كانت عمرة الحديبية

وماذا جرى على أرض الحديبية البعيدة عن المدينة، والتي تقترب من مكة بمسافة ٢٢ كيلاً؟

يقول ابن عمر: (إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً)<sup>(٢)</sup> و(كانت الحديبية سنة ست بعد مقدم النبي ﷺ المدينة في ذي القعدة)<sup>(٣)</sup>

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢١ - ٢٧٢٢) وهو حديث طويل.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠١).

(٣) حديث حسن رواه البيهقي ٤-٩١ لكنه مرسل أرسله نافع ويقويه ما ذكره الحافظ في الفتح: وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند حسن عن ابن عمر قال: كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع) وقد ثبت أن عمرة القضاء بعد عمرة الحديبية بعام.

ويؤكد أنس أن (عمرة الحديبية في ذي القعدة)<sup>(١)</sup> ولم تقتصر دعوته ﷺ على أصحابه، بل دعا الأعراب المتناثرين حول المدينة لمصاحبته، علَّ العمرة تذيب ما ببعضهم من جلافة وجفاء، لكن بعض تلك الجلافة كان صداداً لا يذيبه سوى اللهب.

## موقف بعض الأعراب من الخروج للعمرة

موقف كالعار، فبعض الأعراب تصحر من رأسه حتى قدميه، فهم يتلهفون للنهب والسلب والغنيمة الباردة، وحساباتهم لا تعدو ذلك، وبعضهم وإن ادعوا الإسلام، إلا أن أرقام قريش ما زالت تخيفهم، وحشود الأحزاب ما زالت في نظرهم تكمن خلف الأكمات والهضاب، أما نصر الله ووعدده، والثقة برسوله ﷺ ووحى الله له، فلا رصيد لها في تلك النفوس المتكلسة.

إنه كسراب الصحراء الممتد داخلهم. لقد ظنوا أن قريشاً ستفني محمداً ﷺ وأصحابه، فلا داعي للمجازفة في معركة معروفة النتائج سلفاً، ولذا فقد ادعوا أنهم مشغولون بأموالهم وأهلهم وشؤون دنياهم، وطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم ويسامحهم ويعفيهم من المسير معه نحو مكة. لكن الوحي نزل يفضح سوء ظنهم بالله ورسوله، ويعري حقيقتهم، ويكشف عارهم..

يقول العليم الخبير: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝۱۱﴾ ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظُرَّتْ السَّوْءُ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝۱۲﴾ ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝۱۳﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْزِزُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝۱۴﴾ ﴿

آيات عظيمة.. آيات تخترق أعدار بعض الأعراب الواهية، لتزغ منها جبنهم وأسرار تخلفهم، ولا بد أن المنافقين شاركوهم الرأي والتخلف.. ولذا لم يلح النبي ﷺ

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٧٧٨).

(٢) سورة الفتح: الآيات ١١-١٤.

عليهم، فلا خير فيهم ولا في صحبتهم.. إنه ليس بحاجتهم عند جلاذ السيوف والعراك، فكيف يكون اليوم بحاجتهم وهو لا يريد سوى السلام وزيارة بيت الله وأداء العمرة فيه، فقد (خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد القتال، وساق معه الهدى سبعين بدنة)<sup>(١)</sup> ساقها معه من المدينة لينحرها لله في مكة، فكما أن الصلاة لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له، فكذلك النحر.. لا يجوز لأحد كائناً من كان، إلا الله وحده لا شريك له. يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۗ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأُحَرِّرْ ۗ﴾<sup>(٢)</sup> **إِنَّكَ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۗ**<sup>(٣)</sup>

ولم يأخذ ﷺ الهدى معه فقط، بل أخذ السلاح أيضاً.. لم يأخذه ليقاتل به بل احتياطاً، فالطريق طويلة وشاقة، وقد تباغت قريش أو أعوانها من هنا أو هناك.

خرج ﷺ من المدينة، وكان عدد الذين خرجوا مع النبي ﷺ يصل إلى ألف وأربعمائة.. توجه إليهم النبي ﷺ بقلبه وحديثه، وبشرهم ببشرى تتطامن أمامها كنوز الدنيا ومساحاتها وألقابها.

جابر بن عبد الله رضي الله عنه أحدهم.. أحد الذين شملتهم تلك البشرى.. يحدث الدنيا فيقول: (قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأربعمائة)<sup>(٤)</sup>.

ويقول أحد هؤلاء وهو البراء رضي الله عنه: (كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة)<sup>(٥)</sup> وقال كل من معقل بن يسار والمسيب بن حزن رضي الله عنهما: (ألفاً وأربعمائة)<sup>(٥)</sup> وقد يكون العدد أكبر من ذلك، أي أن عدد الصحابة الذين خرجوا معه ﷺ قد يبلغ ألفاً وخمسمائة صحابي. قال أحد أبناء الصحابة الثقات واسمه: سعيد بن المسيب بن حزن عندما قال له أحد أصحابه: (بلغني أن جابر بن عبد الله يقول: كانوا أربع عشرة

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق سماعاً ومن طريقه أحمد ٣-٢٢٢ حدثنا الزهري عن عروة، عن المسور ومروان.. وهذا سند البخاري في روايته لقصة الحديبية.

(٢) سورة الكوثر: الآيات ١-٣.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٤).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).

(٥) مسلم الإمارة وابن سعد (٩٩/٢) واللفظ له.

مائة؟ قال: نسي جابر كانوا ألفاً وخمسمائة<sup>(١)</sup> (وهم جابر رحمه الله وهو حدثي أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة)<sup>(٢)</sup>

توجهوا بمطاياهم وقلوبهم خلف رسول الله ﷺ نحو بيت الله الكريم، وبعد أن قطعوا مسافة توقف بهم النبي ﷺ في مكان يدعى «ذو الحليفة» وكان:

## التوقف بذى الحليفة

ضرورياً لأداء العمرة، فالعمرة باختصار: طواف حول الكعبة، ثم مشي بين جبلي: الصفا والمروة، وقبل ذلك إحرام من مكان يقال له الميقات. وقد حدد ﷺ لكل بلد ميقاتها، بل حدد لجهات الدنيا كلها أماكن تحرم منها، فميقات أهل المدينة هو «ذو الحليفة» يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن النبي ﷺ وَقَّتْ لأهل المدينة: ذا الحليفة، ولأهل الشام: الجحفة، ولأهل نجد: قرن المنازل، ولأهل اليمن: يلملم، هن لأهلهم، ولكل أت عليهن من غيرهن «من غير أهلهم» فمن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ<sup>(٣)</sup> حتى أهل مكة من مكة)<sup>(٤)</sup>.

والإحرام هو أن ينوي المعتمر أو الحاج بدء ممارسة العمرة، أو الحج، أو العمرة والحج معاً، والأفضل أن يكون لباس المحرم عبارة عن قطعتين من القماش فقط، تسمى إحداهما إزاراً وتلف حول أسفل الجسم، وأما الأخرى فتسمى رداءً وتلف حول أعلى الجسم، ولكن بطريقة خاصة حتى نهاية الطواف، وتسمى هذه الطريقة بـ (الاضطباع) والاضطباع هو: أن يلف الرداء حول أعلى الجسد مع تغطية الكتف الأيسر، وكشف الكتف الأيمن، أي إدارة الرداء من تحت الإبط الأيمن.

وهناك ملابس حرم النبي ﷺ لبسها على المعتمر والحاج منها: القميص والعمامة والسرراويل والبرانس وهي مثل الملابس المغربية فيها غطاء للرأس والأحذية التي تغطي الكعبين. حيث قال: (لا يلبس المحرم القميص ولا العمامة ولا السرراويل ولا البرنس

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) وخليفه (٨١) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) والبيهقي واللفظ له (٩٧/٤).

(٣) أي من كانت بلده أقرب من جميع المواقيت إلى مكة فيحرم من مكانه.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٥٣٠).

ولا ثوبا مسه زعفران ولا ورس ولا الخفين إلا لمن لم يجد النعلين فإن لم يجدهما فليقطعهما أسفل من الكعبين<sup>(١)</sup>

وصل ﷺ إلى الحديبية، فقلد ما معه من الهدى، أي علق على رقابها شيئاً لتعرف أنها هدى سيدبج في مكة لله، وأشعر الهدى وعلمه بعلامة يعرف بها أنه هدى لله، وأحرم بالعمرة.

يقول أحد الصحابة: (خرج النبي ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كان بزدي الحليفة، قلد الهدى، وأشعره، وأحرم بالعمرة)<sup>(٢)</sup> (وصلى بها)<sup>(٣)</sup>.

وأحرم معه بقية الصحابة رضي الله عنهم إلا صحابياً واحداً اسمه: (الحارث بن ربيعي) ويعرف بـ «أبي قتادة» رضي الله عنه، في هذه الأثناء انطلق أحد الصحابة رضي الله عنهم مسرعاً نحو مكة لأداء العمرة ولشيء آخر، فقد صدر:

### أمر النبي ﷺ برصد تحركات قريش

وقد اختار ﷺ لهذه المهمة رجلاً مناسباً اسمه: بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فخزاعة وكعب قبيلة واحدة.

يقول أحد الصحابة: (فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بالعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ)<sup>(٤)</sup> وسار بشر يرصد تحركات قريش ويجمع أخبارها، أما أبو قتادة فلم يأمره ﷺ بالإحرام، لكنه أمره بمهمتين:

### مهمتان لأبي قتادة

الأولى: جمع زكاة بعض المسلمين في الجوار.

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٥ - ٢١٨٧

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٦٩٤) (١٦٩٥).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨) (٤١٧٩)

الثانية: التصدي لسرية معادية من المشركين في مكان بين المدينة ومكة، ويبدو أنه قريب من ساحل البحر الأحمر ويسمى: (غيقة).

انطلق أبو قتادة ومن معه ينفذون أوامر نبيهم ﷺ، وفي الطريق رأى هؤلاء الصحابة شيئاً لا يقدر على نيته إلا أبو قتادة، أما هم فلا يجوز لهم ذلك، بل اكتفوا بتبادل الابتسامات والضحكات. فماذا فعل أبو قتادة ولماذا يضحك أصحابه؟

أبو قتادة رضي الله عنه يقول: (انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية، فأحرم أصحابه ولم أحرم)<sup>(١)</sup> وكان سبب عدم إحرام أبي قتادة هو ما يقوله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة الأنصاري على الصدقة، وخرج رسول الله ﷺ وأصحابه محرمين حتى نزلوا بعسفان)<sup>(٢)</sup> لكن خبراً وصل إلى النبي لله ﷺ جعله يوجه أبا قتادة إلى مكان يقال له: (غيقة) حيث تتواجد هناك قوة من المشركين تستعد للانقضاض على النبي ﷺ وأصحابه، وهي قريبة من ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة.

يقول أبو قتادة: (انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم أحرم، فأنبئنا بعدو «بغيقة» فتوجهنا نحوهم)<sup>(٣)</sup> فقال ﷺ: خذوا ساحل البحر حتى نلتقي. فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبا قتادة لم يحرم)<sup>(٤)</sup> وقد تركوا (النبي ﷺ بالقاحة)<sup>(٥)</sup> وهو مكان بين مكة والمدينة، (فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمْرٌ وحش)<sup>(٦)</sup> (فلما رأوه تركوه)<sup>(٧)</sup> (فجعل بعضهم يضحك إلى بعض)<sup>(٨)</sup> (وأنا مشغول أخصف نعلي، فلم يؤذنونني به وأحبوا لو أني أبصرته فالتفت فأبصرته)<sup>(٩)</sup> (وأنا رجل

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٢) رواه البزار ١٨-٢ زوائد، وابن حبان ٩-٢٨٨ من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن عبيد الله بن عمر عن عياض بن عبد الله بن سعد عن أبي سعيد. عياض تابعي ثقة - التقريب ٤٧٣ وعبيد الله مثله وتلميذه ثقة كذلك.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤). ومسلم (١١٩٦).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤). ومسلم (١١٩٦).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).

حلُّ على فرسي، وكنت رقاءً على الجبال، فبينما أنا على ذلك إذ رأيت الناس متشوقين لشيء، فذهبت أنظر، فإذا هو حمار وحش، فقلت لهم: ما هذا؟ قالوا: لا ندري. قلت: هو حمارٌ وحشيٌّ؟ فقالوا: هو ما رأيت<sup>(١)</sup> (واستغنت بهم، فأبوا أن يعينوني)<sup>(٢)</sup>.

نهض أبو قتادة (فركب فرساً يقال له: الجرادة)<sup>(٣)</sup> ويقول: (فقمت إلى الفرس فأسرجته، ثم ركبت، ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح. فقالوا: لا، والله لا نعينك عليه بشيء. فغضبت، فنزلت، فأخذتهما، ثم ركبت، فشدت على الحمار، فعقرته)<sup>(٤)</sup> (فأتيت إليهم فقلت: قوموا فاحتملوه. قالوا: لا نمسه. فحملته حتى جئتهم به، فأبى بعضهم، وأكل بعضهم. فقلت: أنا أستوقف لكم النبي ﷺ)<sup>(٥)</sup> (فطلبت النبي ﷺ، أرفع فرسي شأواً وأسير شأواً، فلقيت رجلاً من بني غفار في جوف الليل. قلت: أين تركت النبي ﷺ؟ قال: تركته بـ: تعهن<sup>(٦)</sup> وهو قائل السقيا<sup>(٧)</sup>. فقلت: يا رسول الله، إن أهلك «أصحابك» يقرؤون عليك السلام، ورحمة الله، إنهم قد خشوا أن يقتطعوا دونك فانتظرهم «فعل»<sup>(٨)</sup>.

قلت: يا رسول الله، أصبت حماراً وحشياً وعندي منه فاضلة، فقال للقوم: كلوا، وهم محرمون)<sup>(٩)</sup> لأنهم لم يشاركون في صيده.

شارك ﷺ أصحابه في تلك الأكلة، حيث يقول أبو قتادة رضي الله عنه: (وخبأت العضد معي، فأدركنا النبي ﷺ، فسألناه عن ذلك، فقال: معكم منه شيء؟ فقلت: نعم. فناولته العضد فأكلها حتى نفذها وهو محرم)<sup>(١٠)</sup> ثم مكث ﷺ وأصحابه بانتظار أصحاب أبي قتادة الذين كانوا يسيرون ويتساءلون (أنأكل لحم صيد ونحن محرمون)<sup>(١١)</sup>

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢١).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).

(٦) مكان بين مكة والمدينة.

(٧) أي أنه سيقيل في مكان يقال له السقيا.

(٨) ما بين الأقواس الصغيرة عند البخاري (١٨٢٢).

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٢١).

(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٧٠).

(١١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

لقد (أكلوا، فندموا، فلما أدركوه)<sup>(١)</sup> ﷺ سألوه فقال ﷺ: (أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها؟ قالوا: لا. قال: فكلوا ما بقي من لحمها)<sup>(٢)</sup>. (كلوا فهو طعم أطعمكموه الله)<sup>(٣)</sup>

فأكل الصحابة واطمأنت قلوبهم بالحلال، ثم واصلوا مع رسول الله ﷺ المسير نحو مكة لأداء العمرة في بيت الله الحرام، حتى وصلوا إلى مكان يقال له (عسفان) عندها قرر النبي ﷺ:

### التوقف في عسفان ووصول الجاسوس

توقف ﷺ للاستراحة فالسفر شاق وطويل، والليل يخيم بهدوء على تلك الأرض، والصحابة ينسابون في عالم النوم بعد أن فرغوا من مناجاة خالق الكون في صلاة خاشعة، وفجأة تطاير النوم عنهم من هنا وهناك، فقد تساقطت قطرات المطر عليهم فأيقظتهم، وأفرحتهم، فهم بحاجة إلى الماء كحاجتهم إلى النوم.

وفي الصباح المنعش أحب ﷺ بحاجة أصحابه إلى أن يتمتعوا بالمطر والتوحيد معاً، لذلك فقد تحدث إليهم بعد أن أدوا صلاة الفجر.. تحدث إليهم عن المطر بلغة كالمطر.

يقول زيد بن خالد الجهني وهو أحد الصحابة الذين أصابهم ذلك المطر: (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال: قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي:

فأما من قال: مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بي.

وأما من قال: مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي)<sup>(٤)</sup>

إن الكواكب لا تضر ولا تنفع، والتعلق بها شرك.. إنها خلق من خلق الله، وقد سخر الله هذه النجوم ليستغلها الإنسان.. ليستفيد منها.. ليكتشفها ويطوعها ويتفكر

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤٧). ومسلم (٧١).

فيها .. أما المشركون المتخلفون، فقد أهانوا عقل الإنسان وانحطوا به إلى مستوى يخضع فيه لجلاميد الصخور ورماد اللهب.

نزل القرآن ليحرر هذا العقل المكبل بالخرافة والخوف .. ليطلقه في الكون .. نزل القرآن يقدم النجوم والشمس والقمر والبحار، وكل ما في السموات والأرض هدايا للإنسان .. يستمتع بها .. ينعم بها .. يستغلها في رفاهية البشرية جميعاً .. القرآن يقدم الكون للإنسان في علبة هدايا .. يقدمه بصورته الحقيقية التي لا تعني سوى التوحيد .. ها هو القرآن يخاطب الإنسان ليحرره من الخوف والخرافة فيقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾<sup>(٥)</sup>.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾<sup>(٦)</sup>.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾<sup>(٧)</sup>.

القرآن يجعل من الإنسان سيدياً في هذا الكون. فلماذا يتنازل عن سيادته ليصبح عبداً لحجر أو نهر أو شمس أو حطب متقد. هذا هو الفرق بين الإنسان موحداً سيدياً في الكون، وبين الإنسان مغلولاً بالشرك والأوهام.

(١) سورة الحج: الآية ٦٥.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٢.

(٣) سورة النحل: الآية ١٤.

(٤) سورة النحل: الآية ١٤.

(٥) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

(٧) سورة الجاثية: الآية ١٣.

المطر من عند الله، والنجوم من عند الله، ومتى ما اعتقد المسلم أن نجماً ينزل المطر أو يمنعه، فقد اعتقد شركاً.

حضر الصحابة تلك الكلمات في صدورهم، وأشرفت الشمس منتعشة بالتوحيد والمطر، وأقبل راكب من بعيد.. إنه معروف لدى الصحابة ولدى رسول الله ﷺ، فهو الفارس الذي بعثه النبي ﷺ ليرصد تحركات مكة، ويقدم تقريراً مفصلاً عن قريش وموقفها من عمرة النبي ﷺ.

### قريش تتحرك لمواجهة النبي ﷺ

ترجل الفارس عن مطيته وسلم على رسول الله ﷺ وأصحابه فردوا عليه السلام، وكان ذلك في مكان يقال له (غدير الأشطاط) قريب من عسفان نحو مكة، حيث كان النبي ﷺ (بعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه)<sup>(١)</sup> الذي أرسله، وهو بشر بن سفيان ولما (لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العوذ المطافيل<sup>(٢)</sup>، قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم)<sup>(٣)</sup> (إن قريشاً قد جمعوا لك جمعوا لك وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت ومانعوك)<sup>(٤)</sup> (قال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)<sup>(٥)</sup>

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٢) الأطفال والنساء.

(٣) حديث حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢٣ وغيره: حدثني الزهري عن عروة عن المسور ومروان وسند ابن إسحاق هو سند البخاري.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٥) حديث حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢٣ وهو الحديث السابق.

كلمات مملوءة حسرة وألماً.. حلف بعدها ﷺ أن لا يترك الجهاد لنشر رسالة الله التي بعثه الله بها إلى جميع الناس، حتى ينتشر في كل الأرض أو تنقطع سالفته، أي يفارق رأسه جسده، أو تفارقه روحه.. عزم حديد وبأس شديد، لكن دون تهور.. دون انفراد بالرأي والقرار. لقد التفت ﷺ بحديثه إلى أصحابه الذين تجشموا معه الصعاب والألم، وخاطبهم كعادته، فرأيهم له وزنه، وقراراهم له قيمته.. شاورهم وهو الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا حقاً، لتكون الشورى بعده واجبة على كل قائد وإمام:

### مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في شن الحرب

استشار ﷺ أصحابه كلهم دون استثناء.. دون تعيين، ثم أصغى جيداً. بعد أن قال: («أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محروبين»..).

قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه.

قال ﷺ: «امضوا على اسم الله»<sup>(١)</sup> بعد أن أخذ برأي صاحبه الحكيم رضي الله عنه.. مضى النبي ﷺ وأصحابه، وكان هناك من يراقبهم من بعيد، ولما صار النبي ﷺ بين ضجنان وعسفان تسلفت سرية خالد بن الوليد، وكان خالد من القادة الأفاضل، الذين لا يتهورون بإلقاء جيوشهم في أتون محرق من الحماس والإيمان بقيادة النبي ﷺ، لذلك فكر بطريقة ينقض فيها على المسلمين وهم غافلون.

شاهد خالد بن الوليد المؤمنين وهم يؤدون الصلاة.. لا يلتفتون.. لا يكلم بعضهم بعضاً.. ينسابون في خشوع غامر مع ربهم.. لا يشتغلون بشيء أثناء قيامهم وركوعهم وسجودهم، إلا التوجه نحو الله. هذا التوجه الذي أفرح خالداً والمشركين معه.

لقد وجدوا في هذا الخشوع ثغرة ينقضون منها على جمع المؤمنين ليفنؤهم، ولذلك اتخذ خالد بن الوليد قراراً بالهجوم على جيش الإسلام وهم يؤدون صلاة

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨).

العصر، لكن شيئاً حدث، وغير من طريقة الصلاة في تلك الظروف، التي يحمق فيها الرعب من كل مكان على المؤمنين.

## كيف صلى النبي ﷺ العصر

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (نزل ﷺ بين ضجنان وعسفان)<sup>(١)</sup> (فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم)<sup>(٢)</sup>.

ثم قالوا: (إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأبكارهم، وهي «العصر»، فأجمعوا أمرهم فمیلوا عليهم ميلة واحدة)<sup>(٣)</sup>. فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح: فصفنا خلفه صفين، ثم ركع فركعنا جميعاً.

ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا.. جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم. ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء.

ثم ركع ﷺ فركعوا جميعاً، ثم رفع ﷺ فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه.. والآخرون قيام يحرسونهم.

فلما جلس ﷺ جلس الآخرون، فسجدوا فسلم بهم، ثم انصرفنا.

فصلاها ﷺ مرتين، مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم)<sup>(٤)</sup> عندها أدرك المشركون أن لا سبيل إلى المؤمنين حتى في الصلاة، فالصلاة وإن كانت خشوعاً واتجهاً إلى الله

(١) حديث صحيح رواه النسائي (١٧٤/٣) والترمذي (٣٠٣٥) والطبري في التفسير - من طريق عبد الصمد، حدثنا سعيد بن عبيد الهنائي حدثنا عبد الله بن شقيق حدثنا أبو هريرة.. عبد الله بن شقيق تابعي ثقة وتلميذه سمع منه وهو صدوق.. وعبد الصمد بن عبد الوارث صدوق انظر التقريب (٣٠١/١) - ٤٢٢ - ٥٠٧).

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٥٩/٤) والطبراني (٢١٣/٥) (٢١٦/٥) وغيرهم من طريق منصور بن المعتمر عن مجاهد عن أبي عياش رضي الله عنه ومنصور ثقة ثبت لا يدلس - التقريب (٢٧٧/٢).

(٣) هو حديث أبي هريرة السابق.

(٤) هذا حديث أبي عياش الزرقني السابق.

بكل المشاعر، إلا أنها لا تعني التسمر. فالنبي ﷺ كان يفعل أشياء كثيرة أثناء صلاته، فهو يحمل الحسن رضي الله عنه في صلاته، وينزله إذا أراد الركوع، ثم يحمله ثانية إذا أراد القيام<sup>(١)</sup>

وتقول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يصلي والباب عليه مغلق، فجئت، فاستفتحت، فمشى ففتح لي ثم رجع إلى مصلاه)<sup>(٢)</sup>

وكان ﷺ يرد السلام وهو يصلي، ولكن بالإشارة بالكف، أو بالإصبع.

يقول صهيب الرومي رضي الله عنه: (مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه، فرده إشارة بإصبعه)<sup>(٣)</sup>

وها هو يتدخل في صلاته ليفك اشتباكاً بين طفلتين. يقول أحد الصحابة: (جاءت جاريتان من بني عبد المطلب اقتتلتا، فأخذهما، ففرغ بينهما فنزع إحداهما من الأخرى)<sup>(٤)</sup> ويقول أنس: (إن النبي ﷺ كان يشير في الصلاة)<sup>(٥)</sup>

وتقول عائشة: إنها كانت تنام وأرجلها أمام النبي ﷺ وتقول: (لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلي وأنا معترضة بين يديه، فإذا أراد أن يسجد غمز رجلي فضممتها إلي ثم يسجد)<sup>(٦)</sup>.

إذا كان ﷺ يفعل ذلك وهو في ساعات السلام.. في داخل بيته، فساعات حمل السلاح في ساحات الحرب والخوف أدعى وأكثر ضرورة.

(١) مر معنا عند الحديث عن الحسن رضي الله عنه.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٢) وغيره من طريق بشر بن المفضل حدثنا برد بن سنان عن الزهري عن عروة عن عائشة. بشر ثقة ثبت وبرد صدوق انظر التقريب.

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٥) وغيره من طريق بكير عن ابن عمر عن صهيب والنسائي في الكبرى من طريق الليث عن أبي الزبير عن جابر وهذا السند صحيح.

(٤) سنده صحيح رواه أبو داود (٧١٦) وغيره من طريق منصور بن المعتمر عن الحكم عن يحيى بن الجزار عن أبي الصهباء عن ابن عباس. وأبو الصهباء ثقة وليس كما توحى ترجمته في التقريب فقد وثقه العجلي لفظياً وأبو زرعة وجرحه غير مفسر.

(٥) حديث صحيح - السابق (١٧٧/١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (٧١٢).

فهم المشركون أن الصلاة ليست تسمراً وتحنيطاً للأعضاء، بل خشوع لا ينافي الشعور بما يجري حول الإنسان.

أدرك المشركون ذلك، وكان ﷺ أذكى مما تصوروا، فقد بث عيونه ترصد الأرض المحيطة بالمؤمنين، أما خالد فقد انسحب إلى مكان يقال له (كراع الغميم) وجاءت عيون النبي ﷺ تخبره فقال لأصحابه: (إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين.

فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ<sup>(١)</sup>، وسارت من حوله عيونه، ثم جاءت أخبار خالد مرة أخرى، فأمر بتغيير طريق السير.. كل ذلك لأنه لم يخرج للقتال، بل خرج لزيارة بيت الله وأداء العمرة، لكن قريشاً تبحث عن المتاعب، بينما كان ﷺ يتجنبها، حتى لقد سلك من أجل تجنب الحرب طريقاً وعرأ شاقاً كي يتفادى مواجهة قريش، وفي ذلك الطريق الوعر لاحت ثنية صعبة التجاوز. لكن النبي ﷺ بشر الصحابة أن:

### من عبر الثنية غفر الله له

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (خرجنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بعسفان قال لنا رسول الله ﷺ: «إن عيون المشركين الآن على ضنجان، فأيكم يعرف طريق ذات الحنظل»؟

فقال رسول الله ﷺ حين أمسى: هل من رجل ينزل فيسعى بين يدي الركاب<sup>(٢)</sup>؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله.

فنزل، فجعلت الحجارة تتكبه<sup>(٣)</sup>، والشجر يتعلق بثيابه. فقال رسول الله ﷺ: «اركب. ثم نزل آخر، فجعلت الحجارة تتكبه، والشجر يتعلق بثيابه، فقال رسول الله ﷺ: اركب. ثم وقعنا على الطريق حتى سرنا في ثنية يقال لها (الحنظل) فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية إلا كمثل الباب الذي دخل فيه بنو إسرائيل» قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَعْفَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢١).

(٢) أي يمشي أمام الناس.

(٣) تضرب رجله وتصيبه.

(٤) سورة البقرة: الآية ٥٨.

لا يجوز<sup>(١)</sup> أحد الليلة هذه الثنية إلا غفر له . فجعل الناس يجوزون، وكان آخر من جاز قتادة بن النعمان في آخر القوم . فجعل الناس يركب بعضهم بعضاً ، حتى تلاحقنا ، فنزل رسول الله ﷺ ونزلنا<sup>(٢)</sup> .

كان ﷺ يتابع هذا التسابق نحو المغفرة بفرح، وبعد أن عبر المؤمنون كلهم وتجاوزوا تلك الثنية الصعبة .. رأى ﷺ أعرابياً لا يبالي بالبشرى، ولا وزن للمغفرة عنده .. أكلت الدنيا قلبه، فخرج مع المؤمنين عليه يحظى ببعض غنيمة من حطام الدنيا .. رأى ﷺ ذلك الحطام الأعرابي، فالتفت إلى أصحابه وبشرهم بالمغفرة ولم يبشر ذلك الحطام بشيء . يقول جابر رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ: من يصعد الثنية «ثنية المرار» فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل .

فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج، ثم تتام الناس، فقال رسول الله ﷺ: وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر . فأتيناه، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال: والله، لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم، وكان رجل ينشد ضالة له<sup>(٣)</sup> (وإذا هو أعرابي جاء ينشد ضالة له)<sup>(٤)</sup> فضل معها، وكان أضل منها ..

لا أدري ما فعلت به الدنيا، ولا ما فعلت ضالته .. فقد تركه الصحابة وشأنه، وتوجهوا خلف رسول الله ﷺ الذي انحدر من تلك الثنية على أرض يقال لها (الحديبية) وعندما لامست أخفاف ناقة النبي ﷺ «القصواء» أرض الحديبية توقفت فجأة وبركت .

## القصواء تبرك في الحديبية

والصحابه يصيحون بها .. يحثونها على النهوض ويقولون: حل .. حل .. لكنها لم تهض، ولم تتزحزح عن مكانها، فقد (سار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط

(١) يتجاوز ويعبر .

(٢) سنده صحيح رواه البزار (الزوائد - ٢٣٧٢) حدثنا إسحاق بن بهلول، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد . شيخ البزار ثقة تاريخ بغداد ٦-٣٦٦ وشيخه صدوق من رجال الشيخين . وزيد وعطاء تابعيان ثقتان وهشام أثبت الناس عن زيد كما قال أبو داود التهذيب ١١-٣٩ .

(٣) حديث صحيح رواه مسلم - صفات المنافقين .

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - صفات المنافقين .

عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل.. حل. فألحت<sup>(١)</sup>، فقالوا: خلأت<sup>(٢)</sup> القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»<sup>(٣)</sup> حبسها الله الذي حبس الفيل عن دخول مكة لهدم الكعبة. ثم قال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها)<sup>(٤)</sup> (والله لا تدعوني قريش اليوم، إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)<sup>(٥)</sup> (ثم زجرها، فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمذ قليل يتبرضه الناس تبرضاً)<sup>(٦)</sup> أي نزل في مكان اجتمع فيه ماء قليل يستسقي منه الناس تبرضاً، أي بأكفهم، وكان فيها بئر يقول عنه البراء: (الحديبية بئر، فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي ﷺ على شفير البئر فدعا بماء، فمضمض ومج في البئر)<sup>(٧)</sup> بعد أن استنزفه (الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش)<sup>(٨)</sup> لكن النبي ﷺ قال للناس: (انزلوا، فقالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته)<sup>(٩)</sup> (ثم أمرهم أن يجعلوه فيه)<sup>(١٠)</sup> (فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب، فغرز فيه، فجاش الماء بالرواء، حتى ضرب الناس عنه بعطن)<sup>(١١)</sup> أي بركت حوله رواحلهم، فارتوت عروقهم، واطمأنت نفوسهم، وشكروا خالقهم على هذه النعمة العظيمة، والمعجزة التي أجراها سبحانه على يد نبيه ﷺ، الذي توقف في هذه الأرض بوحي من الله، وهو الآن يستدعي أحد أصحابه واسمه (خراش بن أمية الخزاعي) ليكلفه بمهمة خطيرة، وقد اختاره ﷺ من قبيلة خزاعة (وكانت خزاعة في عيبة<sup>(١٢)</sup> رسول الله ﷺ مسلمها، ومشرکها،

(١) بقيت في مكانها.

(٢) حرنت.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢١).

(٤) حديث البخاري الطويل (٢٧٢١).

(٥) حديث البخاري الطويل (٢٧٢١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢١).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢١).

(٩) حديث البخاري الطويل (٢٧٢١).

(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢١).

(١١) حديث البخاري الطويل (٢٧٢١). وأحمد ٢٢٢ واللفظ له.

(١٢) يثق بهم ويثقون به.

لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة<sup>(١)</sup> (كانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة)<sup>(٢)</sup> فهم موضع ثقة عند الطرفين، ولم يكتفِ ﷺ باختيار رسوله بدقة، بل اختار له راحلة مميزة.. لقد أركبه ﷺ على جملة، ثم أمره بالانطلاق، فانطلق ليخبر قريشاً أن:

## النبي ﷺ يعرض هدنة وقريش تريد قتل رسوله

(بعث ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب. فلما دخل مكة عقرت به<sup>(٣)</sup> قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعهم الأحابش حتى أتى رسول الله ﷺ<sup>(٤)</sup> ولولا الله ثم تدخل الأحابش لهلك خراش، لأن الأحابش وهم حلفاء لقريش فكروا بالعار الذي يجلبه قتل رسول. أما قريش فقد أعماهم الكفر والحقد في ساعة غضب، فضربوا بكل شيء عرض الحائط.

عاد خراش سليماً معافى، وجاءت كوكبة من الفرسان من قوم خراش.. هل كانوا يريدون نصر خراش، أم ماذا؟

## من هؤلاء الفرسان وماذا يريدون

إنهم رجال من بني خزاعة، وقائدهم اسمه (بديل بن ورقاء الخزاعي) وكانوا من الرجال الذين يُظهرون النصح لرسول الله ﷺ، وهم وقومهم خزاعة محل ثقة النبي ﷺ (فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء في رجال خزاعة، فقال لهم كقوليه لبشير ابن سفيان)<sup>(٥)</sup> فقد (جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة<sup>(٦)</sup> نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه<sup>(٧)</sup> الحديدية ومعهم العوذ المطافيل<sup>(٨)</sup>، وهم مقاتلوك، وصادوك عن

(١) حديث حسن وهو حديث أحمد الطويل وقد مر معنا (٣٢٤/٤).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) قطعت إحدى قوائمه.

(٤) حديث حسن وهو حديث أحمد السابق.

(٥) حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا (٣٢٣/٤).

(٦) أي أن النبي ﷺ يتق بهم وهم أهل ثقة ونصح له.

(٧) العد هو الماء الذي لا ينقطع.

(٨) أي معهم الإبل ذوات اللبن والأمهات بأطفالهن.